الفصل الثاني

العقل والأخلاق في فلسفة سانتيانا

أولًا: الأخـلاق قبل العقلانية

عندما تبدو الأخلاق متميزة بصفات غير قابلة للجدل، أو عندما تكون أخلاقًا عرضية casual واندفاعية impulsive أو لكونها مؤلفة من عدة عناصر لغوية مختلفة، فإنها في تلك الحالة يطلق عليها الأخلاق قبل العقلانية[1]. أو قد تسمي بالأخلاق الحدسية أو البديهية على حد تعبير سانتيانا[2].

إن الأخلاق قبل العقلانية هي بمثابة معرفة الاختلاف بين كل من المناضد والكراسي، أو الأشياء القريبة والأشياء البعيدة والتي نكاد نعرفها من خلال ذلك العلم الطبيعي، ففي هذه الحالة يبدو ذلك العالم الخلقي بمثابة هذه الأحكام التي لدي السيدة جروندي Mrs. Grundy فهي تكون كأهداف لهذه الأحزاب السياسية ومبادئها، وكذلك كمبادئ تندلع بسببه الحروب، أو هي كتقدير للأعمال الفنية أو كوصايا للسلطات الدينية، وأيضًا كنداءات خاصة بالواجب الذي للأفراد، وكذلك جميع أنظمة الأخلاق الحدسية[3]. ولذلك يمكن القول أن الأخلاق اليونانية قد وقعت تحت تأثير دافعين من دوافع الأخلاق قبل العقلانية هما الدين الطبيعي،

(1) G. Santayana: Reason in Science, op. cit, p. 152.
Look also-Max H. Fisch: Classic American philosophers, op. cit, p. 298.
(2) G. Santayana: Reason in Science, op. cit, p. 163.
(3) Ibid: p. 152.

والوطنية المحلية بأثينا، ويكون أفلاطون قد نجح في جعل الأخلاق دينية، أما غيره من الفلاسفة فقد وقع تحت تأثير الوطنية المحلية[1].

أن مبادئ الأخلاق الحدسية تكون ملائمة، بينما هي ببساطة تقوم بتدعيم وتقوية تلك القوانين الكلية والكونية التي تفرض ذاتها في كل مكان وفي أي مجتمع، كما تفرض ذاتها أيضًا على هؤلاء الرجال تحت سيطرة عقوبة الاندثار السريع، ذلك العقاب penalty الذي يفضله العديد من الأشخاص، وكذلك تفضل الكثير من البلاد أن تدفعه. ولكن عندما تحاول الأخلاق الحدسية أن تقوم بإرشاد هذا التطور والتقدم، فإن سحرها يفشل Its magic fails [2]. وذلك لأن الفوضي في هذه الأخلاق الحدسية أصبحت واضحة بشكل مؤلم في الصراعات conflicts التي تتضمنها، وذلك عندما تنمي تطورات غير متكافئة أو متضاربة في مركزين يقعان بالقرب من كل منهم بدرجة كافية، وذلك حتى يصلوا إلى مثل هذا الاصطناع الفيزيقي[3].

ولكن إذا أردنا أن نطابق الأخلاق بهذه المعايير قبل العقلانية أو الحدسية، فإننا ربما نتفق أيضًا على أن تكون الأخلاق ليست علمًا في حد ذاتها، وذلك على الرغم من أنها قد تصبح ماديات أخرى أو موضوعًا لعلم دراسة الإنسان، فإن هيوم الذي لم يأت لكي يحجب أي عقلانية أو مثالية بعد عقلانية، قد قال الصدق تماما، بأن الأخلاق لم تؤسس على العقل، فالغريزة Instinct بالطبع لم تكن موجودة في العقل، ولكن على العكس من ذلك، إن هذه المبادئ التي قد تم إدخالها بالقوة من خلال ذلك التقليد أو ذلك الضمير conscience فهي تبدو بشكل واضح قد تأسست على الغريزة[4].

إن الشكل الأخلاقي المسمي بالأخلاق قبل العقلانية يكون معتمدًا على الغريزة بشكل واضح، كما يكون معبرًا في نفس الوقت عن العاطفة، ولذلك فهو يتواجد في التفضيلات الراديكالية الأولية التي تتناسب مع العديد من الخيرات، التي هي في

(1) Ibid: p. 159.
(2) G. Santayana: Little Essays, op. cit,p. 242.
(3) G. Santayana: Reason in Science, op. cit, p. 157.
(4) Max H. Fisch: Classic American philosophers, op. cit, p. 298.

النهاية غير مستقرة في ذاتها، كما أنها غير متطابقة مع بعضها البعض، حيث تضع في الاعتبار أن الشيء الخير هو الذي يعبر عن هذه الصفات المعينة بين الشيء والشخص الذي يملك الحكم عليه، وبالتالي فهي تعتمد على المعرفة الذاتية self- knowledge وأيضا على المعرفة بالشيء الذي هو مثار التساؤل[1].

ولكن إذا كان سانتيانا وافق هيوم في نظريته الأخلاقية في كون الأخلاق غير مؤسسة على العقل، إلا أن سانتيانا أكد على أن الأخلاق الحدسية تؤسس العقل، وذلك لأن كل مبدأ أو نظرية تعبر عن بعض من هذه الأفكار التي يتم من خلالها مقارنة الدوافع أو تغييرها، فإن الأفكار في هذه الحالة تصل إلى درجة التصور الخلقي moral perception ولا تصل إلى مرتبة العلم الخلقي moral science [2].

إن ما سبق عرضه لا يعني أن تكون الأخلاق قبل العقلانية، أو الحدسية أخلاقًا غير حقيقية أو أن تكون غير ذات قيمة أخلاقية، وذلك لكونها مؤسسة على الغريزة الحيوانية، أو العاطفة الإنسانية، أو لكونها أيضًا لا تستطيع أن تصل إلى مرتبة العلم الخلقي، أي أنها تفتقر إلى منهج التحليل الذي استخدمه سانتيانا لكي يبرر به طبيعة نظريته الخاصة بالخير، ولكن أكد سانتيانا في مواضع عدة أن هذه الأخلاق الحدسية تكون كافية بينما هي ببساطة تدعم وتقوي من هذه القوانين الكونية الشمولية والواضحة، والتي تكون أساسية بالنسبة لأي مجتمع، حيث يمكن أن تفرض ذاتها على هؤلاء الرجال الذين يعانون من وطأة الألم الزائل، وذلك الخمول السريع، حيث تحاول الأخلاق الحدسية أن تدفع عن هؤلاء الأفراد وكذلك عن هذه الأمم الفقيرة ذلك العقاب الأثيم، ولكن عندما تحاول هذه الأخلاق الحدسية أن تسعي على هذا الأساس التصوري وتحاول أن ترشد هذا التقدم والتطور، فإن سحرها يبوء بالفشل في هذه الحالة[3]. وكذلك إذا تجسدت الاهتمامات الواقعية والعادات الراسخة والتقديرات المتناقضة مع كل ما هو خيالي، أو تكون قد انفجرت ضمنيًا

(1) John Magnus Michelsen: The Place of Buddhism in Santayana›s Moral Philosophy, at, http://ccbs.ntu.edu.tw/FULLTEXT/JR-ADM/magnus.htm

(2) G. Santayana: Reason in Science, op. cit, p. 157.

(3) Ibid: pp. 163, 164.

في صورة أحكام مشبوبة بالعاطفة، فإنه يكون من الصعوبة القول بأن الأخلاق قبل العقلانية أخلاقًا حقيقية بالفعل[1].

ثانيًا: الأخلاق العقلانية

لم تعد الأخلاق العقلانية Rational Ethics الحقيقية أو هذا النظام الاجتماعي السائد موجودًا في هذا العالم، كما يبدو أن هناك صعوبة بالغة في البحث عنه، حيث إن كل ما يرشد الرجال والأمم تجاه ممارستهم يكون هو ذلك الاهتمام المتحيز أو هذه الواقعية التحيزية[2]. فالأخلاق العقلانية تقتضي ضمنًا الوصول إلى هذه المعرفة الذاتية الكاملة، ولذلك لا يجب فقدان أي خير متجانس بشكل ضروري مع العقل ذاته أو مع العدالة ذاتها، لذا فإنه لا يوجد خير يكون متجانسًا أو مترابطًا مع هذه المخلوقات الأخرى الذين هم قد أبعدوه عنهم[3]. كما يمثل فيلسوف الأخلاق العقلانية القوة النشطة لهذا العالم، حيث يقوم باكتشاف صفاته وأنسابه الموجودة فيه، كما يقوم باستبعاد الأشياء الكريهة التي تقف على النقيض من الأشياء الكريمة[4].

تعد الأخلاق العقلانية عند سانتيانا عبارة عن تجسيد للإرادة volition وليست وصفًا لها، إنها عبارة عن التعبير لذلك الاهتمام الحي والمباشر، وكذلك هي عبارة عن التعبير عن التفضيل، وأيضًا هي تعبير عن الاختيار المطلق، حيث تترك لكل من علم النفس والتاريخ المساحة الحرة لوصف هذه الظاهرة الأخلاقية moral phenomena فليس لديها أدني اهتمام لكي تنزلق من تحت هذه الحقائق الطبيعية وتعلق ذاتها في هذه الخيالات والأساطير المستحيلة والبعيدة المنال أو اليوتوبيات، لكي تعبر عن ذلك الأساس غير الطبيعي لهذه التأملات البشرية، فهي يمكن معرفتها على أساس أنها تحرير للقوة الخاصة بها[5].

(1) Ibid: p. 152.
(2) Max H. Fisch: Classic American philosophers, op. cit, p. 303.
(3) G. Santayana: Reason in Science, op. cit, p. 170.
(4) G. Santayana: Little Essays, op. cit, p. 244.
(5) Ibid: p. 245.

لقد رأي سانتيانا أن الأخلاق العقلانية تشبه مبادئ الأخلاق قبل العقلانية، من حيث أنها بمثابة أنظمة نصفية في كونها مؤسسة على الدافع، كما تقوم بتشكيل وتكوين هذه الأخلاقيات الطبيعية. فالأخلاق العقلانية كما يراها فيلسوفنا عبارة عن وسيلة ثابتة لإنجاز وتحقيق هذه النهايات التي ينجذب إليها الإنسان بفضل تكوينه العقلاني وتكوينه الجسدي أو الطبيعي. فمن خلال هذه الحالة أو ذلك الظرف يتم إزالة العيوب أو النقائص من هذه الأخلاق العقلانية، والتي تكون كافية في هذه الأنظمة الاصطناعية واللفظية وغير المناسبة للأخلاقيات، لذا كان لابد لها من تحرير ذاتها من ذلك الارتباط المدمج إلى الخبرة والتكوين الإنساني[1].

ولهذا السبب تختلف (الأخلاق العقلانية) عن (الأخلاق قبل العقلانية) في كون الأولى كاملة وتامة، ولهذا فهناك دافع واحد يتجاهله هؤلاء الأخلاقيين الحدسيين، وهو ذلك الدافع الذي يقود إلى التفكير حيث إن الغرائز الإنسانية غير علمية وجاهلة بطبيعة الأشياء، كما أنها متنوعة، وكذلك في كونها غرائز متناقضة، كما يعد بمثابة كارثة خطيرة، وذلك لأن هذا النوع من الغرائز يمنع إشباع الغرائز الأخرى التي تكون خصبة بشكل دائم وجوهري. كما تكون أيضًا شرعية وقانونية وذلك عند تطبيقها العقل إلى الحياة، ففي هذه الحالة تصبح الحياة ثابتة ودائمة بالإضافة إلى كونها كاملة ومتسقة، وذلك عندما نفكر فيها أو ننظر إليها على أساس كونها حياة كلية أو شمولية[2].

ولكن رأي سانتيانا ضرورة اعتماد الأخلاق العقلانية على المبادئ قبل العقلانية حتى ولو كان هناك اختلافًا بين القيمتين، حيث رأي أنه لا يمكن للمرء امتلاك الانسجام أو التناسق الموجود بين الأشياء بدون أسباب، فالأخلاق العقلانية تكون متعذرة ومستحيلة إذا أبطلت مبادئ الأخلاق قبل العقلانية، مثل الاندفاع إلى تأسيس التناسق وحب النظام، فكل ذلك يكون بمثابة عاطفة طبيعية للأخلاق قبل العقلانية، وبالتالي يكون أقصي تغيير في مبادئ الأخلاق بعد العقلانية كونها تقدم فكرة طبيعية جديدة، وعاطفة قبل عقلانية، ويكون الدافع للانسجام ليس مجرد كونه ضمن الروح

(1) G. Santayana: Reason in Science, op. cit, p.176.
(2) Ibid: pp.176,177.

الإنسانية أو ضمن العالم الإنساني، بل كونه موجودًا بين هذا العالم والروح الإنسانية من ناحية، وبين الكون والحقيقة والله من الناحية الأخرى[1].

وهنا لابد أن نتساءل..

إلى أي حد تختلف الأخلاق العقلانية عن الأخلاق الحدسية؟ وإلى أي مدي اعتمدت الأخلاق العقلانية على العقل؟ وهل يمكن اعتبار الأخلاق العقلانية عند سانتيانا فلسفة مبتكرة أم أنها فلسفة تلفيقية تحاكي الفلسفات القديمة؟ وهل تعد فلسفة سانتيانا العقلانية فلسفة أم أنها عبارة عن دراسة فلسفية؟

عندما قام سانتيانا بعرض نظريته في الأخلاق العقلانية أشار إلى أهمية العقل في مقام الأخلاق، حيث رأي أن العقل عبارة عن انسجام الحياة الباطنية أو الحياة الداخلية مع الصدق، وأيضًا انسجامه مع القدر، ونتيجة لذلك ركز سانتيانا اهتمامه على اكتشاف ماهية الحكمة التي تكون مناسبة لذلك الحيوان صاحب العقل الشعري من البداية إلى النهاية[2]. كما أن العقل فينا هو عبارة عن الطبيعة بلغت مرتبة الإدراك، فهي إذ تستهدي به إنما تسترشد بضوء نفسها في تبيان طريقها، ومعرفة الغاية التي تسعي إليها، فالعقل عند سانتيانا عبارة عن ازدواج من عنصرين: الحافز الذي يحفز ويدفع، والفكر الذي يفهم، ولو انفرط ما بين هذين العنصرين من رباط لانقلب الإنسان وحشًا ضاريًا أو مجنونًا لا يعي[3]. وعليها تبدو الأخلاق العقلانية عنده عبارة عن مجموعة من الأديان[4]. ويكون العقل فيها هو تقليد الإنسان لله[5].

وذلك على النقيض مما رآه الأستاذ وولف في فلسفة سانتيانا من أن العقل البشري عند الفيلسوف محل الدراسة هو عقل شعري في أصل جبلته، والحكمة هي أن يواجه الإنسان الأمور بثغر باسم غير حاسب لأي حادثة حسابًا، وليس للعقل عنده أثر عملي لأنه مجرد ظاهرة عارضة «فوظيفته أشبه بوظيفة الطقوس

(1) G. Santayana: Apologia pro Mente Sua, op. cit, p. 563.
(2) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 14.
(3) ول ديورانت: قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، مرجع سابق، ص 604.
(4) G. Santayana: Reason in Science, op. cit, P.170.
(5) Will Durant: Outlines of philosophy, op. cit, p.422.

الدينية لأنه ينظر بعين تملؤها الرهبة إلى ما ينتاب البدن من الأحداث الجليلة وما يعتريه من الحظوظ»[1].

وبالنظر لهيوم الذي لم يكن لدية أي تصور عقلاني، فإنه أيد الفكرة المطلقة التي تقول أن الأخلاق غير موجودة في العقل والغريزة[2]. وبالتالي فإن سانتيانا قد قبل هيوم وانتهي معه إلى أن الأخلاق ليست عقلانية، على الرغم من أنه يمضي إلى القول بأن الوسائل التي يمكن بها تحقيق هذه الأهداف تكون عقلانية، وبالتالي لا يمكن أن تكون الأخلاق في رأي سانتيانا عقلانية بشكل تام[3].

ولكن النقد والتعقيب على فلسفة العقل الأخلاقية لم ينشأ من فراغ، حيث أعطي سانتيانا الفرصة للباحثين في فلسفته بأن يكون عندهم التبرير الكافي لذلك التعقيب، حيث يحاول سانتيانا كما يرى البحث أن يعلي من شأن العقل بمختلف تعبيراته في جل كتبه، وفي كتبه الأخرى يقلل من قيمة العقل ويرجع الأخلاق العقلانية إلى المبادئ قبل العقلانية، بل أعطي له قيمة نسبية وذلك على حد تعبيره.

ويرى سانتيانا أن الجزء العقلي من طبيعتنا هو في جوهره نسبي، حيث يقودنا من المعطيات إلى النتائج أو من الجزئيات إلى الكليات، ولكنه لا يمدنا أبدًا بالمعطيات التي يعمل بها، فإذا قررنا لحالة من حالات التفضيل أو لمبدأ من المبادئ أنه مطلق وأولي، فإننا نقرر بذلك أنه لا عقلي، لأن الاستدلال والتركيب من وظائف العقل الجوهرية[4]. ولكن تصبح الأفكار معقولة عند سانتيانا لسببين: الأول ـ لما فيها من الانسجام الذاتي، والثاني ـ لأنها تطابق الحقائق الخارجية المتحققة بالفعل أو المحتملة الوقوع[5].

من هنا رأي «ول ديورانت» أن سانتيانا كان يعرف ما في العقل من تقلب وعدم

(1) ا. وولف: فلسفة المحدثين والمعاصرين، مرجع سابق، ص 214.

(2) Max. H. Fisch: Classic American philosophers, op. cit, p.298.

(3) Rand`s Eyhics, part16,at: http://aynrandcontrahumannature.blogspot.com/2008/04/rands-ethics-part-16.html

(4) جورج سانتيانا: الإحساس بالجمال، مرجع سابق، ص 46.

(5) ا. وولف: فلسفة المحدثين والمعاصرين، مرجع سابق، ص ص 213،214.

ثبات، وما في العلم من قابلية للزلل والخطأ، ولكنه على الرغم من ذلك يرى وجوب اعتمادنا على العلم وحده[1]. وذلك لأن العلم يقوم في أي مرحلة من مراحل تاريخ الجنس البشري، بتزويد الأخلاق بلائحة من الغايات المرغوبة، فينتقي الأخلاق من بينها، ثم يعود العلم فيوفر لنا الوسائل لبلوغها[2].

وفي عام 1940 انتقد سانتيانا بسبب هذا التغيير في فلسفته من قبل بعض البرجماتيين الأمريكيين الذين كانوا متعاطفين مع رؤي سانتيانا المبكرة، حيث اعتبروا أن ذلك يعد هاجسًا متزايد للفيلسوف الأسباني الأمريكي مع الحياة الروحية spiritual life والذي يعد خيانة لحياة العقل، ففي «دفاع عن نفسي» رد سانتيانا الأخلاق العقلانية إلى أسس ومبادئ الأخلاق قبل العقلانية، وبعد ذلك صرح بأنه قد يمكن ألا يكون هناك شيء اسمه «عقلاني» كما ظهر ذلك عند هيوم حين قال «العقل وحده يمكنه فقط أن يكون عقلاني، ولكن هذا العقل لا يشير بمفرده إلى الخير»[3].

ولكن... أين رأي سانتيانا الأخلاق العقلانية الحقيقية التي حاول أن يسير بمقتضاها؟

لقد رأي سانتيانا أن الصورة الوصفية لهذه الأخلاق العقلانية أنها كانت واضحة وموجودة عند سقراط، كما مجدها وعظمها أفلاطون، كما أصبحت ذات وقار ومتانة عند أرسطو، حيث إنها تقدم منهجًا واضحًا للحكم والتقدير، فهذه الأخلاق العقلانية يمكن تطبيقها بشكل كلي، كما يمكن التعبير عنها من خلال الممارسة[4]. وهذا ما أكده سانتيانا أن الفلسفة اليونانية بعد سقراط قد وجدت المعتقد الرشيد في الأخلاقيات، حيث حاول أن يعيد صياغة ذلك الموضوع في حياة العقل، وفي نقده لكل من الأدب والدين، حيث إن المبادئ الرشيدة والتقليدية قد تم صياغتها بوضوح عند أفلاطون في فيليبوس والكتاب الأول من الجمهورية، ولكن لسوء الحظ قد تناقضت آراء

(1) Will Durant: Outlines of Philosophy, op. cit, 422.

(2) جون كيمني: الفيلسوف والعلم، ترجمة/ أمين الشريف، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر، بيروت، 1965 م، ص 345.

(3) Rand`s Ethics, part16, at: http://aynrandcontrahumannature.blogspot.com/2008/04/rands-ethics-part-16.html

(4) G. Santayana: Reason in Science, op. cit, P.171.

أفلاطون في الأخلاق مع فضيلة الاعتدال عند سقراط ذاته، حيث تحولت آراءه بطريقة فطرية إلى أسطورة جديدة، في محاولة منه لإضفاء القوة والهيمنة الكونية لمفهوم الخير[1]. كما رأي سانتيانا في فلسفة أفلاطون كثير من الأخطاء، كما رأي فيها سفسطة يراد بها «تطويع الطبيعة للأخلاق» كذلك رأي فيها رابطًا زائفًا بين التفوق والوجود، وبناءً خاطئًا للعلاقة بين الواقع والقيمة[2].

ولكن الذي أعجب به سانتيانا هو فلسفة سقراط العقلانية، وحاول على غرار ذلك أن يطبق أفكار سقراط على الحياة الأمريكية المعاصرة، حيث رأي سانتيانا أن المنهج أو الطريقة السقراطية تنطوي على قبول أي تقدير قد يمكن لأي إنسان أن يصنعه بإخلاص، كما تعمل على تطبيق الجدل عليها، وذلك لكي تدع للإنسان أن يرى ما يريد أن يقيمه ويقدره في الواقع، فالمنهج السقراطي عبارة عن روح المحادثة التحررية للإخلاص والكياسة بين البشر[3].

لقد كان الغرض من نظام الأخلاق العقلانية الذي قام به سقراط واثنين من تلاميذه في تأليفه، هو عرض هذا التشريع العملي الذي يناسب البشرية، وقد كان ذلك من ثلاثة جوانب، الجانب الأول كان عن طريق سخريته، والثاني كان من خلال نزعته المثالية الواضحة، والجانب الثالث كان من خلال اهتمامه الفائق بالتاريخ والتحليل، حتى نجحت هذه القلة القليلة بدرجة كافية في رسم مخطط نحو الأمل[4].

لقد رأي سانتيانا أن سقراط قد أظهر الإخلاص المتبادل في أثينا، وقد انتقل ذلك الإخلاص والاحترام إلى مفهوم الديمقراطية، كما انتقل إلى مفهوم الحرية وذلك في إطار المسموح به، فهذه الأخلاق المخلصة التي نادي بها سقراط أنقذته من أن يكون رجلًا سوفسطائيًا، وكذلك كل من اتبع هذا المنهج السقراطي، حيث عبرت النزعة السوفسطائية عن الفوضي الأخلاقية في عقائدها، فلم تكن لهم قاعدة خاصة يستندون إليها في الأحكام، فالمذهب السوفسطائي يتكون من تجاهل لهذه اللحظة

(1) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 14.

(2) موريس جروسمان: دراسة واقعية حول فلسفة الشك في عالم سانتيانا، مرجع سابق، ص 256.

(3) G. Santayana: Reason in Science, op. cit, P. 171.

(4) Ibid: P. 187.

المعاشة، كما اعترف هذا المذهب بأنه لا يوجد حكم يستطيع أن يشير إلى أي شيء مبهم أو غير واضح، وبالتالي لا يوجد حكمًا أخلاقيًا خاطئًا، فكل إنسان في أي لحظة من لحظات الحياة يعد هو معيار ذاته، وهذه هي قاعدة الحكم لديهم[1].

من هنا لم يقع سقراط في هذه المغالطات التي كان ينادي بها السوفسطائيون من خلال قوة الصدق والإخلاص force of truth and honesty التي تنقذ من الوقوع في المغالطات أثناء الجدل. لقد تبني سقراط في كل علمه النية أو القصدية بشكل دقيق، ذلك مما قد تجاهله السوفسطائيون، كما أصر على أن الناس يجب عليهم أن يكونوا على درجة واضحة من الإخلاص فيما يعنون به وفيما هم يريدونه، فعلي هذه الصخرة الحية أسس سقراط العلوم، كما أوجد عليها هذه العلوم المثالية للمنطق والأخلاق، التي تقع في هذه البصيرة المتحررة والإرادة الفعلية الصادقة[2].

إن هذه الواقعة أو الحادثة circumstance قد جعلت من المذهب السقراطي في الحال المنهج العلمي والأخلاقي، فهو منهج علمي، لأنه قد تأسس على الجدل، وكذلك منهجًا أخلاقيًا لأنه يعبر عن هذه التأملات الشخصية الحية[3]. كما كان سقراط يعتقد أن الإنسان يمكنه باستخدام عقله أن يصل إلى مجموعة من المبادئ الأخلاقية التي تمكنه من التوفيق بين المنفعة الشخصية والخير العام، ويمكن لمثل هذه المبادئ أن تكون عامة قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان[4].

لقد أكد سانتيانا على أن الفلسفة السقراطية مازالت تحتفظ لنا بذلك الوصف الواقعي والحقيقي والنبيل لماهية الخيرات التي يمكن أن ندركها خلال هذه الحياة المعاشة، حيث إن النظرية الحديثة لم تقدم ذلك الوصف الواقعي أو تلك المساعدة لدينا، فهي مثل العلم الفيزيقي نادرًا ما تخبر فلاسفة الأخلاق المحدثين بأن فلسفتهم هي عبارة عن كل الخير والفن. حيث يعتقدون أن بعض هذه النظريات التي تشمل المشاعر والأحاسيس الأخلاقية عبارة عن أشكال مجردة بالكامل من هذه المثاليات

(1) Ibid: P. 172.
(2) Ibid: P. 172.
(3) Ibid: P. 172.
(4) محمد مهران رشوان: تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، مرجع سابق، ص 53.

التي تحكم المجتمع في العلم والفن، كما أنهم يتعاملون مع ذلك السؤال الثانوي ما الذي يجب أن أفعله؟ دون أن يقدموا إجابة مبدئية عن السؤال ما الذي يجب أن يكون what ought to be? فهم يربطون الأخلاق بالدين أكثر من ربطها بالسياسة، وبذلك يصبح الدين عبارة عن خرافة مغطاة بنوع من العقلانية[1].

لقد قسم فلاسفة الأخلاق المحدثين الإنسان إلى عدة أفكار، ويتركون الجزء الأقل منها لما يسمي بالأخلاقية morality ويعتقدون أن أخلاقهم هذه هي الأكثر وضوحًا وبيانًا، بل في بعض الأحيان يعدونها على أنها نوع من الحذلقة pedantry والتفكير المدرسي scholasticism ويحملون إلى أبعد من كونها لا شيء nothing ولكن هذا المعني المجرد لمعني الواجب duty يظل في المنطقة الأوسع والأشمل حيث يشمل كل الخيرات البشرية. إن مثل هذه النقاط التافهة التي يخبرون عنها في الأخلاق ترجع بلاشك إلى هذه الآراء السطحية بالنسبة لشروط الرفاهية، حيث إن الأساس الذي تم تقديمه هو عبارة عن موضوع للسلطة وليس موضوعًا للطبيعة البشرية، وبالتالي كان الهدف منه الخلاص salvation أكثر من السعادة[2].

أما الأخلاق عند أرسطو كما يرى سانتيانا فإنها تشكل جزءًا من السياسة، كما أن تأسيس هذا الفن يخلق الطبيعة الإنسانية، ويوجد الانسجام المعياري في الحياة[3]. كما رأي سانتيانا أيضًا أن الألوهية عند أرسطو Aristotle`s Deity هي عبارة عن مثالية أخلاقية، وكل تفصيل في تعريفها يكون معتمدًا على التمييز بين الأحسن والأسوأ، ولذلك لا توجد لديها أي مساعدة يمكن أن تسمح بها لوسائل الطبيعة لتضفي بها على المملكة السماوية، فالألوهية لا تدان بفعل أي شيء يحدث، ولذلك كانت الألوهية خيالية وأسطورية فقط في التطبيق الفيزيقي، وفي الفلسفة الأخلاقية تظل الألوهية عبارة عن مفهوم شرعي وقانوني[4].

من خلال ما سبق يبدو سانتيانا معتدلًا ومتواضعًا، فهو لا يقدم لنا فلسفة جديدة،

(1) G. Santayana: Reason in Common Sense, op. cit, p. 30.
(2) Ibid: P. 30.
(3) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 14.
(4) G. Santayana: Reason in Common Sense, op. cit, pp. 26, 27.

بل يريد تطبيق الفلسفات القديمة على حياتنا المعاصرة، فهو يعتقد أن أفضل الفلاسفة هم أولهم وأقدمهم، ويضع على رأسهم «ديمقريطس» و«أرسطو»، فهو يحب في الأول نزعته المادية الواضحة، وفي الثاني رجاحة عقله وسلامة حكمته، ويرى صحة ما ذهب إليه أرسطو في الطبيعة البشرية والأخلاق، وهكذا واجه سانتيانا مشكلات الحياة الحاضرة متسلحًا بمذهب ديمقريطس الذري ونظرية أرسطو في الأخلاق[1] وهي الوسط الذهبي.

وعليها تعود الأخلاق العقلانية في أصلها إلى سقراط وأرسطو، كما وجدت في الفلسفة الحديثة عند «باروخ اسبينوزا».

ومن ناحية أخرى، يأتي النقد والتعقيب من خلال «دفاع عن نفسي» لسانتيانا، حيث أرجع فيه الأخلاق العقلانية إلى أسس ومبادئ الأخلاق قبل العقلانية، وبعد ذلك صرح بأنه قد يمكن ألا يكون هناك شيء اسمه «عقلاني» ـ كما ظهر ذلك عند «هيوم»، وانتهي معه إلى القول بأن الأخلاق ليست عقلانية، وذلك على الرغم من قوله بأن الوسائل التي يمكن بها بلوغ وتحقيق هذه الأهداف هي وسائل عقلانية[2]. ونجد ذلك واضحًا في كلمات سانتيانا أنه في الحقيقة هناك عقل، لكن لا يوجد عقل أخلاقي، لأنه عادة يتميز بالمادية، كما يعتبر من ضرورات الأشياء، وببساطة العقل هو الأساس الاندفاعي للقوي الحيوانية، وأساس التغير العام الذي يستخلص الأشكال الممكنة والمتقلبة سواء كان ذلك مفيدًا أو ضارًا من واحد لآخر[3].

وفي نهاية مناقشة ذلك الموضوع الذي قد يخطر بعقل أي باحث، أو دارس للفكر الفلسفي ويحاول أن يجعل لسانتيانا نظرية واضحة في الأخلاق، وقد يصف النظرية بأنها «نظرية الأخلاق العقلانية»، فإنه لا يجانب الصواب في قوله أو فكره، فإذا قال ذلك فإنني أسأل عدة أسئلة ـ ما الجديد الذي جاء به سانتيانا في نظريته الأخلاقية العقلانية؟ وهل هي نظرية واضحة بذاتها أم أنها عبارة عن دراسة مستفيضة للفكر اليوناني القديم والإعجاب بالعقل السقراطي والاعتدال الأرسطي؟

(1) ول ديورانت: قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، مرجع سابق، ص 605.
(2) Ibid:at, http://aynrandcontrahumannature.blogspot.com/2008/04/rands-ethics-part-16.html
(3) G. Santayana: Reason in science, op. cit, p. 154.

وما الاختلاف بين نظرية مور التحليلية في الأخلاق ونظرية سانتيانا في الخيرية؟ وأيضًا ما الاختلاف بين نظرية سانتيانا التي تقول بأن الأخلاق عبارة عن جزء من الفلسفة الطبيعية ونظرية «اسبينوزا» في الأخلاق الطبيعية؟ وما العلاقة بين نسبية القيم الأخلاقية بين هذا الفيلسوف المحدث وذلك الفيلسوف المعاصر؟ ولماذا لم يأخذ سانتيانا بنظرية أفلاطون المثالية في الأخلاق؟ هل كان الرفض لمجرد كونها يوتبيات حالمة أم لكون «اسبينوزا» الفيلسوف اليهودي قد سلب سانتيانا القدرة على الأخذ بالاتجاهات المثالية بشتي أفكارها وأنواعها؟ وإذا كانت نظرية سانتيانا نظرية عقلانية فأين العقل في أفكارها؟ وإلى أي مدي ظهر في الأخلاق حتى يوصف بأنه صاحب الصدارة في تأسيس الأخلاق العقلانية المعاصرة؟ وهل هناك منهج جديد يحاول أن يفسر عجز العقل في الوفاء بمتطلبات القيم الأخلاقية؟ وإذا كان ذلك كذلك فما هو الأساس الذي يقوم عليه ذلك المنهج؟ كل هذه التساؤلات سوف تجد إجابات عليها في خاتمة هذا البحث.

ثالثًا: الأخلاق بعد العقلانية

لقد طرحت الأخلاق بعد العقلانية post rational morality ذاتها كموضوع هام للبحث في النظام العقلاني للأخلاق، حيث أراد سانتيانا من هذه النظرية الأخلاقية أن يعدل من وجهة نظره في الأخلاق العقلانية، فأراد أن يكمل الأخلاق العقلانية بقيم ما بعد العقلانية، وذلك في العقد الأول من القرن العشرين[1].

وعلى هذه الجدلية تعد الأخلاق بعد العقلانية نتيجة هامة لكل قوة في الطبيعة، فهي عبارة عن القاعدة الأساسية لهذه المؤسسات والفلسفات المعقدة التي تحتوي بداخلها الحياة الدنيوية، حيث تعمل على إعادة تقييم هذه الحياة مرة أخرى[2]. فعندما تكون الحياة الإنسانية في مأزق حقيقي وفعلي، فإن الأحلام المريضة the sick dreams التي تزور الروح، هي الدليل الوحيد على استمرارية الحياة في الوجود، فمن

(1) Rand`s Ethics, part16,at: http://aynrandcontrahumannature.blogspot.com/2008/04/rands-ethics-part-16.html

(2) G. Santayana: Reason in science, op. cit, p. 190.

خلالها تستطيع الروح أن تتصور مفهوم الخير، فإذا ما انتقل بالتدريج كل من الهذيان والعالم الطبيعي، فإن الروح تعيد تكوين ذاتها من منظورها الخاص، حيث تنسب إعادة توالدها إلى عمل هذه الخيالات والظواهر الخارقة للطبيعة[1].

لقد رأي سانتيانا أن الأخلاق بعد العقلانية تتشكل في النية، أو القصدية Intention إن لم تتشكل قي الواقع، فهي عبارة عن نقد لكل تجربة وكل خبرة، فهي ليست شبيهة بمبادئ الأخلاق قبل العقلانية، حيث تبدو الأخيرة كاختيار اعتباطي من بين هذه النظريات المتناسقة والمترابطة، أما الأخلاق بعد العقلانية فهي بمثابة ذلك المجهود المضني الذي يعمل على دمج هذه النظريات المتناسقة في نظرية واحدة، من حيث أنها تشير بطبيعتها إلى ذلك الخير المفقود في العالم[2].

إذا كانت الأخلاق بعد العقلانية عند سانتيانا عبارة عن نقد لكل خبرة، فإنها بذلك تعتمد على نزعته الطبيعية، وعلى تقديره الإنساني والتعاطفي من أجل كل حياة كريمة Good Life ولكن من خلال السيرة الذاتية فإن نظرية سانتيانا الواضحة عن المعرفة الذاتية في الإحساس الإغريقي هي العلامة المميزة لديه، حيث إن النزاهة Integri-ty أو التعريف الذاتي هو الشيء الأول والأساسي في الأخلاقيات[3]. ولذلك أكد سانتيانا على أن العبادة الطبيعية، أو عبادة الطبيعة Pantheism كما يسميها، سوف تبرز هذه الأخلاقيات بعد العقلانية، حيث تمارس ذلك الزهد Asceticism كما تبحث عن التحرر الأسطوري والخرافي من هذا الوجود المحدود[4].

يرى سانتيانا أن الحدود الجدلية the dialectic terms تقف على النقيض من هذه الموضوعات الطبيعية، وكذلك من تصور هذه القوي الطبيعية، والتي كانت ترتبط بطبيعة الحال عن طريق هذه الديانة بعد العقلانية، فهذا السحر الذي يمارسه الجدل

(1) Ibid: P. 190.
- Look also, G. Santayana: Little Essays, op. cit, p. 276.
(2) G. Santayana: Reason in science, op. cit, p.189.
- Look also, G. Santayana: Little Essays, op. cit, p. 276.
(3) Stanford Encyclopedia of Philosophy, at. http://plato.stanford.edu/entries/santayana (02/06/2008).
(4) G. Santayana: Reason in science, op. cit, p. 197.

على العقل المجرد، يعد في حد ذاته قمة في العظمة لأنه ربما ينمو ويتطور ليصل إلى هذا التأثير المقدس والانكشاف الإيجابي الذي يقدم الحماية لهذه الحياة المتهالكة في خضم هذا الوجود الزاخم[1].

أن قيمة الأخلاق بعد العقلانية تعتمد على ذلك التماثل، والتطابق المضاعف مع حياة العقل، فمن الناحية الأولى يجب أن يتم استرجاع بعض من هذه الدوافع الطبيعية وتلك المثالية التحيزية التي يجب أن تصدق. ومن الناحية الثانية أن هذا الحس الذي تم الحصول عليه يجب أن يكون نقطة البداية لهذه الأخلاق الجديدة وإلا سوف يصبح هذا الإيمان الذي ينجذب إليه الحدس بلا قيمة في عمله، وكذلك يصبح تصوري وخيالي في أساسه، كما أنه يصبح غير قادر على مواكبة العمل في هذا المجتمع المتحضر[2].

وهنا نتساءل...

إذا كان كل من سقراط وأرسطو هما المرشد الذي اهتدي به سانتيانا في أخلاقه العقلانية، فما المرشد الذي استند عليه سانتيانا في تبرير الأخلاق بعد العقلانية التي تعتمد على الروح وطهارتها بشكل كلي؟

لقد رأي سانتيانا أن الهنود كانت لديهم الاستقامة في التفكير المتعالي، حيث أنهم قد تبنوا أهمية الروح الإنسانية بشكل منتظم، حيث يرون أن هناك شاهد خفي بل يوجد كائن أخلاقي غير مرئي في كل شيء في الوجود، وهذا الكائن غير المرئي ليس بذات فيزيقية أو نفسية، ولكنه عبارة عن المركز الأعلى الذي يقود هذا العالم أو أي عالم آخر بل أي إله، حيث يكون ذلك الكائن عبارة عن حدث مفروض يثير التساؤلات عنه[3].

إن هذه الروح الملهمة أخلاقيًا لديها العلاقات والارتباطات الدرامية التي تواجه بها هذا العالم، بل ربما تتحول الروح إلى احتقان عاطفي حيث تبدو الروح وشتي

(1) Ibid: P. 197.
(2) Ibid: P. 210.
(3) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 22.

الأشياء الطبيعية متحدة ومترابطة في اتحاد أساسي، حيث تكون في مشهد درامي شأنه في ذلك شأن أي مشهد آخر[1].

من هنا تعد الإشارة إلى البوذية الهندية هي الصفة الرئيسية والخاصية الجوهرية التي تتميز بها نظرية سانتيانا في الأخلاق بعد العقلانية، حيث تتضمن هذه النظرية شتي المجهودات الأخلاقية، لكي تساند بها المبادئ التي تشير إلى الخير الحقيقي والنهائي للفرد البشري. فتعد الأخلاقيات بعد العقلانية المعني المرادف للحياة الروحية، حيث إن الصفة الجوهرية التي تتميز بها البوذية هي الانعزال أو الانفصال، وبهذه الصفة يمكن أن يقال بحق أن البوذيين هم الأساتذة الحقيقيين في موضوع الأخلاق بعد العقلانية[2].

وأكد سانتيانا على ذلك بقوله «أن الفلسفة اليونانية كانت تؤمن بالطبيعة والسياسة أكثر من إيمانها بالروحانيات، ولم يتيسر لها حتى الآن أن تتحول إلى هذا الندم المتعالي الذي لعب دورًا كبيرًا في الفكر الهندي القديم، كما وجد بعد ذلك في التأملات المسيحية»[3]. كما يقول أيضًا «أن هذه العقيدة الهندية، والتي أشيد بها بشكل كبير سواء في الاعتقاد أو في أسلوب الحياة، قد اختارت الموت ورحبت به للحب الذاتي، وقد بدا ذلك واضحًا من خلال فقدها لفرديتها في البراهما Brahma أو في النيرفانا Nirvana كما تخلت عن كل هذه الاختلافات الحادثة بين مفهوم الخير والشر»[4]. حيث تحاول الفلسفة الهندية التعرف على طبيعة الإنسان الروحية كما تهتم بمصيره الروحي، ومن ثم فقد ارتبطت هذه الفلسفة في عمومها بالدين على اعتبار أن دافعهما واحد وهو رسم الطريق الروحي للحياة وخلاص الإنسان في علاقته بالعالم والكون[5].

لقد رأي سانتيانا أن الفلسفة البوذية Buddhistic نظرت إلى السلام الدائم في

(1) Ibid: P. 22.

(2) John Magnus Michelsen: The Place of Buddhism in Santayana›s Moral Philosophy, at, http://ccbs.ntu.edu.tw/FULLTEXT/JR-ADM/magnus.htm

(3) G. Santayana: Apologia pro Mente Sua op. cit, p. 509.

(4) Ibid: P. 561.

(5) مصطفي النشار: المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص 93.

العالم، حيث اهتمت بتحرير الروح الإنسانية، بل سعت إلى أبعد من ذلك، حيث نظرت إلى هذه النعم غير المحدودة، كما كانت تحلم بتتويج هذه الروح التي كان من الواجب أن تتوج من قبل ذلك العالم أو هذا الكون المثير، أو من قبل الله تعالى القدير، كما حاولت العقيدة البوذية أن تهدئ من فزع ذلك العالم المريض عن طريق المهدئات، في حين سعت المسيحية أن تهدئ العالم وتطهره باستخدام النار، فكان من نتائج اندماج الحياة المسيحية أن شعرت الدوافع قبل العقلانية، وبعد العقلانية بالاغتراب، على الرغم من وجود الأمل على هذه الأرض الموعودة[1].

يرى سانتيانا أن الأخلاق البوذية عبارة عن الأخلاقيات الطبيعية التي قد امتزجت بذلك الشعور والإحساس الذي يدفع إلى المسئولية التي ليس لها حدود، كما أن الأخلاق البوذية قد تكونت من خلال هذه التبريرات السلبية والتشاؤمية التي أعطتها ومنحتها هذه العقيدة البوذية إلى هذه المحاولة الأخلاقية، فكل صفة أخلاقية كان ينظر إليها على أنها عبارة عن ذنب زائل ومعاناة مفجعة قد ارتكبها الإنسان، حتى أصبحت المعرفة ذاتها عبارة فقط عن وسيلة لهذا الخلاص أو هذه النهاية[2].

إن أهم صورة من صور العلاقة بين فلسفة سانتيانا والفلسفة الهندية هي أن سانتيانا قد طور بشكل جيد داخل ذلك التقليد الغربي لهذه الفلسفة، والتي هي متشابهة تمامًا مع ذلك المذهب البوذي، ولذلك السبب كان من اللازم أن نتحدث عن هذه الصفة بدلًا من أن نتحدث عن ذلك التأثير بين سانتيانا والنزعة البوذية حيث بدت هذه الصفة بشكل تام في حديث سانتيانا عن الحياة الروحانية والفلسفة الأخلاقية، وذلك على الرغم من أن هذه الصفة قد بدت أيضًا في الأوجه الثلاثة لفكره العقلاني[3].

ولكن... أنهي سانتيانا تحليله للروح البوذية بنتيجة متناقضة عما قد عرضه في بدء حديثه، حيث رأي أن الروح التراجيدية الحزينة تحيا وتسترد وحدتها، كما أنها عبارة عن روح أخلاقية معرضة في وجودها إلى الحظ fortune التي هي في حاجة

(1) G. Santayana: Reason in science, op. cit, p. 201.
(2) Ibid: p. 205.
(3) John Magnus Michelsen: The Place of Buddhism in Santayana›s Moral Philosophy, at, http://ccbs.ntu.edu.tw/FULLTEXT/JR-ADM/magnus.htm

إليه لكي يدعمها وينقذها، فهي ليست روح فعلية أو حقيقية بالمرة، ولذلك فإن هذه الفلسفة الروحية على الرغم من ذلك ليست فلسفة رشيدة أو تقليدية arthodox إذ أنها لم تكن تحتوي على الزهد والتنسك، كما أنها منفصلة عن العالم[1]. كما رأي أيضًا أن أنظمة الأخلاق بعد العقلانية ليست أعمال أصلية أو حتى ذات أصالة، فهي عبارة عن محاكاة لهذه الأخلاق الطبيعية التي قد تترجم إلى لغات ميتافيزيقية مختلفة وكل لغة تعمل على إضفاء مذاقها الخاص عليها، كما تضيف عبقريتها الخاصة وكذلك شعرها البسيط لذلك الأصل أو الأساس الشائع[2].

(1) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 22.
(2) G. Santayana: Reason in science, op. cit, p. 204.